بردى ...
والتاريخ العربى

للأستاذ على الطنطاوى

(بردى) سطر من الحكمة الإلهية ، خطته يد الله على صفحة هذا الكون ، ليقرأ فيه الناس ببصائرهم لا بأبصارهم فلسفة الحياة والموت ، وروعة الماضى والمستقبل — وخصَّته للأمة العربية ، جمعت فيه تاريخها الجليل ببلاغة علوية معجزة .

والله الذى جعل الآية المعجزة فى القرآن — هو الله الذى جعلها فى الأكوان

والله الذى أعجز ملوك القول وأمراء البلاغة ، بسُوَر من آيات وكلمات وحروف ، هو الله الذى أعجز قادة العقل ، وأئمة الفلسفة ، بسور من بحار وأنهار وكهوف .

وما (بردى) إلا سورة من قرآن الكون المعجز البليغ — وليس إعجازه فى أنه يجرى ؛ ولكن إعجازه فى أنه ينطق . وبان فى كل شبر منه تاريخ حقبة من العصور ، وتحت كل شبر أنقاض أمة من الأمم : أمة ولدت فى حجره ، ورضعت من لبانه ، وحبت بين يديه ، ثم قويت واشتدت ، ونتت فأعلت ، وفتحت فأوغلت . ثم داخلها الغرور ، وحسبت أنها شاركت الله فى ملكه ، فظلمت وعتت واستكبرت ؛ فبعث الله عليها نسمة واحدة من وادى العدم ، فاذا هذه العظمة وهذا الجبروت ذكرى ضئيلة فى نفس بردى ، وأنقاض هينة فى أعماقه ، وصفحة أو صفحتان فى كتاب التاريخ . وإذا بأمة أخرى تخلفها فى أرضها ، وترثها مالها ، ثم يكون سبيلُها سبيلَها : فقام الفنيقيون على أنقاض الحثيين ، والكنعانيون بعد الفنيقيين ، والفرس بعد الكنعانيين ، واليونان بعد الفارسيين ، والروم بعد اليونانيين ، والغساسنة بعد الرومانيين ، والمسلمون بعد الغسانيين — ثم قام العباسيون على أثر الأمويين ، ثم قام صلاح الدين ، ثم جاء الترك بعد السلجوقيين — ثم جاء فيصل بن الحسين ، ثم جاءت جيوش الفرنسيين .

هكذا يدور الفلك فى السماء . ويدور السلطان فى الأرض ، فتنشأ من القبر الحياة ، ويغطى على الحياة قبر ، والسلسلة لا تنتهى ، والناس لا يعتبرون ... و (بردى) يبتسم ساخراً من غرور الانسان ، ضاحكاً من جهالته . يحسب نفسه شيئاً ، فيضارع الكون ، ويتطاول بعقله الى الله ؛ وما هو من الكون إلا ذرّة من الرمل ضائعة فى الصحراء ، وما عمره إلا ثانية واحدة من عمر (بردى) .

***

(بردى) وهو يجرى على الأرض ، رمز لتاريخ الأمة العربية وهو يجرى فى الزمان . ففى كل قسم من بردى ، فصل من التاريخ :

يخرج (بردى) من بقعة فى (الزبدانى) منعزلة صعبة ، لا يبلغها إلا من كان من أبنائها عارفاً بمداخلها ومخارجها — كما خرج العرب من هذه (الجزيرة) الصعبة المنعزلة ، التى لم تلن إلا لأبنائها ، والتى ردت عنها الفاتحين كافة ، وجعلت رمالها قبراً لكل من يجرؤ منهم على وطئها ، على أنه لم يتجرأ عليها إلا كسرى ، فبلغ جيشه (ذى قار) ، ولكن الجزيرة قد ابتلعت هذا الجيش وهى تهتف لمحمد ، ثم لم يقنعها هذا الثأر ، فابتلعت دولته كلها فى (القادسية) تحت راية محمد ، .. وقالت للعالم : هذا جزاء من يطأ الجزيرة !

ويسير (بردى) فى غور عميق لا يخرج الى هذه الجنان الجميلة الفتانة التى قامت على مقربة منه ، يسلك قرارة الوادى ، تلتطم أمواهه وتصطدم : كما كان العرب فى جاهليتهم يصطدمون ويقتتلون ويشتغلون بأنفسهم عن العالم ، فلم يخرجوا الى الدنيا ، ولم تخضع لجزيرتهم جنات الشام ، ولا سهول مصر ، ولا سواد العراق .

ثم يبلغ (بردى) (الفيجة) وهناك تصب فيه أمواهها العذبة الصافية الزاخرة ، فلا تخالطه ولا يخالطها ، ويسير النهر خمسين مترا ، ومن إحدى جهتيه (بردى) القليل الكدر ، ومن الأخرى (الفيجة) الكثيرة العذبة ، ثم يختلطان ، فتضيع قلته وكدورته ، فى كثرتها وصفائها ؛ ويعدو (بردى) قوياً عذباً زاخرا ، نحو أرض الورود والثمار .

كما صبت على الديانة الجاهلية ، مبادئ الاسلام السامية ، فتجافى العرب عنها ، وأبوا أن يتبعوها ، وكادوا لأصحابها ، حتى غدت الجزيرة كبردى ، فيها المسلمون الموحدون المتحدون ،

والجاهليون المشركون المختلفون ، ثم مكّن الله لمحمد ، فخضعت له الجزيرة لم تخضع قبل لمخلوق ، واجتمعت كلها تحت رايته ، ولم تجتمع قبل تحت راية واحدة ، فقادها الى الشام والعراق ، الى أرض النخيل والأعناب .

ويبلغ (بردى) (بسيمة) ويبلغ (الجديدة) فيسير بين بسيمة والجديدة ، فى أجمل البقاع على وجه الأرض ، ويسقى هذه الحمائل فيكون شكرها إياه ، أفنان الورود ، وأغصان الأشجار التى تتدلى فوقه ، وتلمس خده لمساً رفيقا ، وتقبل جبينه قبلة طاهرة ، وهو يلين تارة فترى حصباءه من صفائه ، ويشتد أخرى فيرغى ويزبد ، ويكون له منظر مرعب ولكنه جميل ! مرهوب ولكنه محبوب !

كما كانت الأمة العربية بعـــد أن بسطت سلطانها على العالم القديم كله محبوبة مرهوبة فى آن ، يفزع أعداؤها من هيبتها ، ولكنهم يحبون عدلها ، وينتفعون بحضارتها . أغاثت بالعدل بقاع الأرض فكان شكرانها إياها ، هذه الأموال التى فاضت بها خزائنها ، وهذا النعيم الذى تفيأ ظلاله أبناؤها ، وكانت تستقيم لها الأمور فتلين وتدع هذه الرقعة البسيطة من الأرض جنة يسعد بها أهلها ، ويسعد بأهلها أهل الأرض جميعا ، وكانت تستغضب ، فاذا غضبت غضب لها الدهر ، واذا سارت الى عدوها سار فى ركابها الموت والدمار أى سارت : كانت تحمل فى يمينها السلام والسعادة ، وفى يسراها الموت والشقاء ، كما يحمل بردى بين (بسيمة والجديدة) الغيث والثمرات ، والطوفان والغرق .

ويبلغ بردى (الربوة) ويعشى حيال الغزيين ، ذلك المغنى الذى بنى من الشعر ، وولد فيه الشعر ، ثم استحال الى مقام من عيدان تقوم على الخمر والقمر والعمر . . . وينقسم بردى الى أقسام سبعة قد انتشرت نثراً بين عدوتى الوادى : يزيد ، وتورا ، وبردى ، وبابناس ، وقنوات ، والديرانى ، وعقربا — منها القوى الممتلئ ، ومنها الضعيف القليل — كما انقسمت الأمة العربيـة الى طوائف وحكومات ، منها القوى المتين ، كحكومة صلاح الدين التى ردت — على صغرها — أوربة كلها يسوقها الجهل والتعصب ، وانتزعت فى (حطين) الفريسة من (قلب الأسد) ، وحكومة سيف الله التى هدّت فى (الحدث) حكومة الرومان هداً ، ومنها الضعيف المستكين وقد أزهرت الحضارة فى هذا العهـــد وأثمرت ، كما أزهرت الأشجار فى (الربوة) وأثمرت .

ثم يدخل بردى (دمشق) ، فلا يصفق بالرحيق السلسل ، ولا يتمايل على الورود والرياحين ، بل يصفق بالأوحال والحشائش ، ويميـل على الأقذار والأوساخ ، ويشح ماؤه وينضب ثم يغيض ويضمحل ، كما ضاعت عزة العرب ، واضمحلت . . .

ثم يخرج الى (الغوطة) فاذا نشق نسيمها عاودته الحياة ، ونشأت فى مجراه الجاف الصلب ، عيون وينابيع ، فاذا بلغ (جسر النيضة) عاد قوياً زاخراً عذباً — كما عادت الأمة العربية اليوم الى الحياة ، ورفعت فى الشام ومصر والعراق صروحاً جديدة ، لن تلبث الا قليلاً حتى تكون خالصة لأصحابها ، من دون الناس أجمعين !

* * *

وبعد ، فهل أحزنك يا بردى انك اليوم ضائع فى أهلك ، لا ترى حولك عزة العروبة ولا جلال الاسلام ؟ كلا ، لا تحزن يا بردى فما أنت وحدك المضاع ، ان هنا أمة بقضّها وقضيضها ، هى مثلك مضاعة ، وهى مثلك بنت المجد والسؤدد .

لا تحزن يا بردى ! فلقد عشت حيناً من الدهر ، وأنت تسقى النيل والفرات وسيحون والوادى الكبير . . . أفيضيرك وأنت من لدات الدهر ، أن تذل ويذل أهلك أياماً .

لا تحزن يا بردى ، بل اصبر حتى اذا أعجزك الصبر ، فثر بأمواهك ، وليضطرم موجك حتى تغسل عن قومك عار الذلة والخنوع ، انه لا يغسله الا ثورتك ، هذه سنة الحياة يا بردى : لا بالحق ولكن بالقوة .

واذا غرّهم منك لينك . فأرهم شدتك ، إن الماء على لينه يجرف جبلاً على جبروته وكبريائه ، ولقد ثرت مرة ، فبلغ رشاشك بواديه من هنا ، وحيدر آباد من هناك ! فهل استنفدت تلك المرة قوتك كلها ؟ أما فيك بقية من الشباب ؟ أتعبت اذ تجرى هذه الملايين من السنين ؟ إنها فترة صغيرة من عمرك ، فعلام الونى ؟ انك لا تزال شاباً . ولم تنس بعد جيش خالد ولا موكب الوليد ، لقد كان ذلك أمس . وسيكون مثله فى غد .

فاصبر ولتصبر يا بردى ! إن الصبر مفتاح الفرج يا بردى . . .

دمشق — على الطنطاوى